

# الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة

في جنوب الشام (الأردن وفلسطين)

في العصر المملوكي

د. يوسف درويش غزالي

جامعة اليرموك

الطاعون مرض وبائي معد ينتقل الى الانسان عن طريق الحيوانات القارضة كالجرذان ، ويصيب الغدد الليمفاوية ، وخاصة غدد الفخذ وتحت الإبطن والاذن ، فتتضخم وعنها تنتقل الميكروبات الى الدم ، فيصاب المريض بالحمى شديدة ويتقيأ دما لمدة ثلاثة ايام دون انقطاع . وفي العادة فان هذه الاورام التي تصيب الجسد يوجد بها مادة سوداء في حجم حبة العدس ، فاذا تقيحت نجا المريض ، وان بقيت صلبة فمعنى هذا هلاك المصاب في اليوم الخامس من الإصابة . واحيانا يصاب الجسم بالبثور والدمامل السوداء وتنتشر في اماكن متعددة منه . ونعت الطاعون في المصادر العربية (( بالوباء )) و (( الفناء العظيم )) ، اما المصادر الاوروبية فنعتته بالسوت الاسود ( Black death ) . ويصف ابو المحاسن اعراضه فيقول : « كان يخرج خلف اذن الانسان بثرة فيخر صريعا ، ثم صار يخرج للانسان كبة فيموت ايضا سريعا ، ثم خرجت بالناس خيارة فقتلت خلقا كثيرا ، ثم صار الادمي يصبق دما ويموت من وقته » (١) . والطاعون سريع الانتشار شديد الفتك حتى بالحيوانات على اختلاف انواعها (٢) .

وذكرت المصادر ان بلاد الشام اصابها في سنة ١٨ هـ ( ٦٣٩ م ) ما عرف « بطاعون عمواس » (٣) ، وكان عاما ببلاد الشام والعراق ومات في البصرة بسببه عدد كبير من الناس (٤) . وصاحب طاعون عمواس قحط وجفاف ، واكثره كان ببلاد الحجاز (٥) ، فاصابت الناس مجاعة شديدة ولزبة وجذوب وقحوط ادى الى فناء العديدين وهو ما سمي « بعام الرمادة » (٦) .

ثم اصاب فلسطين في عهد الخليفة هارون الرشيد ( ١٧٠ - ١٩٣ هـ ) طاعون وصف « بأنه طاعون جارف ربما اتي على جميع اهل البيت فخربت ارضهم وتعطلت (٧) ، فلم تجد الارض من يملكها او يستغلها ، فتحولت ضياع كثيرة الى الدولة واصبحت « ضياعا للخلافة » (٨) ، فأوكل بها من يزرعها ويعتني بها .

اما اشد انواع الطاعون فتكا وأوسع انتشارا فذاك الذي انتشر في العصر المملوكي ، ووصفنه المصادر العربية « بالفناء الكبير ، أو الطاعون الاعظم » (٩) ، وشمل كل أنحاء العالم . وكان ابتداءه في حلب سنة ٧٤٨ هـ ( ١٣٤٧ م ) ، ومنها انتشر الى جميع بلاد الشام ، فأصاب الاردن وفلسطين ، وعم اكل مدينة وقرية . وعن طريق السفن التجارية انتقل الى بلاد الفرنج ( اوروبا ) فأصاب قبرص ، والاندلس ، وإيطاليا وفرنسا والمانيا ، والدول الاسكندنافية وروسيا ، وبريطانيا (١٠) .

واستمر الطاعون يفتك بمنطقة الاردن وفلسطين منذ منتصف القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلادي ) حتى أواخر القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) . وكان أشده ذلك الذي ابتداء سنة ٧٤٢ هـ ( ١٣٤١ م ) ، فأصاب اولاً واسطراً آسيا والصين ثم الهند ، وانتقل غرباً بواسطة المسافرين الى بلاد الاناضول والعراق . وفي مستهل جمادى الاولى ٧٤٨ هـ ( ٩ آب ( اغسطس ) ١٣٤٧ م ) ظهر بحلب (١١) ، فعم جميع بلاد الشام ثم انتقل الى مصر ، ومنها الى أوروبا نقله التجار الجنوبيون الى إيطاليا (١٢) . ويصف أبو المحاسن هذا الطاعون فيقول : « أفنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي ، حتى أنه لم يبق ببلد جنين غير عجز واحد خرجت منها فارة ، وكذلك وقع بالرملة وغيرها وصارت الخانات ملانة بجيف الموتى » (١٣) . أما ابن بطوطة فذكر أن الطاعون أصاب عجلون وبيت المقدس (١٤) ، وأن غزة فنيت بسببه ، وأكد ذلك كل من المقرئزي وأبي المحاسن ، فذكر أن غزة فقدت اثنين وعشرين ألفاً من سكانها (١٥) .

وعقب الطاعون أصيبت بلاد الشام سنة ٧٩٠ هـ ( ١٣٨٨ م ) « بوباء ومرض كثير » ، فأصاب غزة والقدس ودمشق ، وأدى الى هلاك خمسة آلاف شخص في شهر واحد في مدينة دمشق لوحدها (١٦) . ثم عاد الطاعون للمنطقة في السنوات ٧٦٤ هـ ( ١٣٦٢ م ) ، ٧٨٤ هـ ( ١٣٨٢ م ) ، ٧٩٥ هـ ( ١٣٩٢ م ) ، فأصاب شمال الاردن والاعوار وغزة وأدى الى هلاك أعداد كبيرة من سكانها (١٧) . ولكن سرعان ما عاد الطاعون والوباء والحميات الى البلاد في السنوات ٧٩٦ هـ ( ١٣٩٣ م ) ، ٧٩٧ هـ ( ١٣٩٤ م ) ، ٨٠٠ هـ ( ١٣٩٧ م ) ، ٨١٩ هـ ( ١٤١٦ م ) ، ٨٢٦ هـ ( ١٤٢٣ م ) ، فأهلك العديد من سكان الاردن وفلسطين (١٨) وقدر ابن الصيرفي عدد من مات في بلاد الشام في سنة ٨١٩ هـ ( ١٤١٦ م ) بستة وثلاثين ألفاً (١٩) .

وفي سنة ٨٣٣ هـ ( ١٤٢٩ م ) تفشى الوباء في الاردن وفلسطين ، واشتد تأثيره في غزة والرملة والقدس وصفد ، فمات بسببه خلّاق لا يحصى عددهم (٢٠) . ووصف المقرئزي هذا الوباء بأنه يشبه النزلات ، اذ كان ينحدر من الدماغ الى الصدر ، فيموت

الإنسان في أقل من ساعة بغير تقدم مرض ، وكان أكثره في الاطفال والشباب (٢١) . ثم عاد الوباء للاردن وفلسطين في سنة ٨٤١ ( ١٤٣٧ م ) فمات الكثيرون ، وكان أشده في غزة والرملة ومنطقة الاغوار . (٢٢) وباعتقادي ، ان هذا الوباء الذي تقدم وصفه ، هو نوع من انواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذه السرعة وبهذا الشكل الخطير . واستمر الطاعون يفتك بالاردن وفلسطين في السنوات ٨٧٣ هـ ( ١٤٦٨ م ) ، ٨٨١ هـ ( ١٤٧٦ م ) ، ٨٩٧ هـ ( ١٤٩١ م ) ، وافنى العديد من السكان (٢٣) .

اما الجفاف الذي اصاب الاردن وفلسطين في العصر المملوكي فكان مزمانا في اكثر الاحيان لوباء الطاعون ، ففي سنة ٧٩٧ هـ ( ١٣٩٤ م ) اصاب البلاد جفاف فانهضت الامطار ، وجفت الآبار وانعدمت الزراعة ، وهلك المواشي ، فنزع الناس عن بلادهم ، وتعطلت حركة التجارة الداخلية في المدن وتسبب ذلك في كساد اقتصادي كبير ، والى موت العديدين جوعا (٢٤) .

ثم ان بلاد الشام عامة اصبحت في سنة ٧٩٩ هـ ( ١٣٩٧ م ) « بالقحط العظيم » ، فجفت الآبار وانخفض منسوب مياه الانهار حتى انها لم تكن قادرة على ادارة الارحية المعدة لطحن الحبوب ، فاغلقت لذلك ارحية عديدة (٢٥) . وجفت الينابيع في انحاء متفرقة من البلاد ، وادى الجفاف الى هلاك الناس وانعدام الزراعة واتلاف المحاصيل الزراعية وقلة مياه الشرب (٢٦) ، فارتفعت الاسعار واضطر الناس الى اكل الشعير لعدم وجود القمح . وباع الناس أغلى ما لديهم بأبخس الاسعار لشراء الطعام ، وفي هذا القحط قال الشاعر :

سنين القحط قد دارت علينا	وعمت للكبير مع الصغير
وبعنا الفرش والبسط الغوالي	ونمنا بالثياب على الحصير
لقينا من اذاها ما لقينا	وزاحمنا الحمير على الشعير (٢٧)

ونتيجة لهذا القحط قل الخبز في الاسواق ، وصار الناس يتزاحمون على الافران صفوا خلف بعضهم من المطع الى المغيب ، وهو عجيب أسود « وكثير من الناس ما يحصل له خبز ، وبقي الرجل يقف نصف يوم حتى يحصل له خبز » (٢٨) . وقد ارتفعت اسعار اللحوم وانعدمت الفواكه والخضراوات من قلة الماء ، وكان الناس في شدة عظيمة (٢٩) .

ثم أن القحط اصاب الاردن وفلسطين سنة ٨٢٥ هـ ( ١٤٢٢ م ) « فأجذبت أراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر في اوانه ونزع كثير من سكان هذه البلاد عن اوطانهم وقلت المياه عندهم » (٣٠) . وذكر القرطبي في

سنة ٨٢٩ هـ ( ١٤٢٥ م ) ان جنوب الشام أصيب بقحط وجفاف أدى الى ارتفاع الاسعار في بلاد غرة والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحمص وحران و حماه (٣١) .

ومن الملاحظ ان سنين القحط والجذب كانت متزامنة مع سني الطاعون والوبئة فأنظر ذلك في بيئة جنوب الشام فقلت المواد الغذائية وأصيب الناس بالمجاعة والعطش والفناء الكبير . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل تعرضت البلاد في تلك السنوات انعجاف لزحف الجراد القادم عبر الصحراء ، فأنظر في البيئة الزراعية والنباتية وزاد من عناء المواطنين وبؤسهم . ففي سنة ٧٧٠ هـ ( ١٣٦٨ م ) ظهر بالشام جراد عظيم لم يسمع بمثله وامتد من مكة الى الشام ، وكان أكثره بحوران ومنطقة الاردن حتى أكل الاشجار والاشخاب وأبواب الدور ، « وكان من شأنه بعجلون أنه امتلات منه المدينة وغلقت الاسواق وطبقت أبواب الدكاكين والطاقت وسدت الابواب وحضروا نصلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع وترأس على الخطيب على المنبر حتى شغلته عن الخطبة ، وانتنت ( المدينة ) لكثرة ما قتل منه » (٣٢) .

من خلال سردنا للاحداث السابقة نلاحظ أن منطقة جنوب الشام ( الاردن وفلسطين ) أصابها الفناء العظيم ( الطاعون ) ثم الوباء والقحط عدة مرات منذ أوائل القرن الاول للهجرة ( السابع الميلادي ) ، وحتى أوائل القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) فما تأثير ذلك في البيئة الاردنية الفلسطينية ؟؟

وصفت المصادر منطقة الاردن بالخصوبة والمناخ المنعش، فشمالها كان من أحسن المناطق الصحية في العالم (٣٣) . وغطت غابات السرو والسنديان والبلوط معظم مرتفعات عجلون ومؤاب والشراه ، وانتشرت الينابيع في الاودية العديدة شمالها وجنوبها . أما سهولها فاشتهرت بالخصوبة ووفرة الغلات في كل من عجلون والبلقاء والشوبك والكرك (٣٤) ، وكثر القمح في عمان والصلت فوصفت « بعمدن الحبوب » . أما غابات الزيتون فانتشرت في عجلون ومؤاب ووادي موسى والشراه ، وكانت كروم العنب في كل مكان من الاردن . وذكرت المصادر أن جبال مؤاب اشتهرت بأشجار اللوز والرمان والتين (٣٥)، واودية الكرك والصلت وحسبان بفواكهها المفضلة من المشمش والرمان (٣٦) وأشجار الجوز ، حتى ان سيلا اجتاحت اودية الكرك سنة ٧٨٧ هـ ( ١٣٨٥ م ) فأخذ في طريقه اثني عشر ألف شجرة جوز (٣٧) . ووجد في الاغوار زراعة الارز وقصب السكر والموز والنيل والنخيل (٣٨) ، وانفردت مدينة بيسان بنبات السامان الذي يصنع منه الحصر السامانية (٣٩) . ووجد النخيل في ايلة ( العقبة ) ومدينة زغر في الغور الصافي جنوب البحر الميت (٤٠) . أما المراعي فقد انتشرت في الجبال والسهول والاعوار والبادية وكثرت فيها الاغنام والابقار والابل (٤١) .

اما منطقة فلسطين فقد وصفها الجغرافيون بالخصب ووفرة الانتاج ، فاشتهرت المناطق الجبلية في الجليل ونابلس والقدس والخليل بالأشجار المختلفة كالسرو والسنديان والخروب والسماق ، والزيتون والكرمة والتين والجميز ، والتفاح والخوخ واللوز والجوز والرمان والشمش (٤٢) . أما السهول الساحلية فاشتهرت بقصب السكر والبرتقال والسفرجل والحبوب كالقمح والشعير والسمسم والذرة والخضراوات بأنواعها (٤٣) . وهكذا فاننا نرى أن منطقة جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر الاسلامي كانت من أخصب المناطق واجملها ، ووفرة الثروات ذات مناخ منعش وطبيعة جميلة وكثافة سكانية عالية .

ولكن الطاعون والوباء ثم القحط والجفاف تركت آثارها بارزة في البيئة الاردنية الفلسطينية . فالطاعون أصاب البلاد منذ القرن الاول للهجرة ( السابع الميلادي ) ثم تتابع في فترات أخرى لاحقة . فالطاعون الذي أصاب البلاد في عهد الرشيد أثر على الديموغرافية في الاردن وفلسطين ، وفنيت عائلات بأكملها ، وتمطلت الزراعة وفلاحه الأرض ، مما دعا الدولة الى تأجير هذه الأراضي لفلاحين جدد ، بل ان قسما من هذه الأراضي أصبح ملكا للخليفة (٤٤) .

اما الطاعون والوباء الذي أصاب البلاد في منتصف القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلادي ) فكان تأثيره كبيرا في ديموغرافيتها فمات العديدون من سكان الاردن وفلسطين ، وفقدت البلاد ثلثي سكانها (٤٥) . فابن بطوطة ذكر ان عجلون والقدس وغزة كان معظمها خاليا من كثرة من مات فيها من الطاعون (٤٦) . أما جنين والرملة واللد والكرك والاعوار فبعضها فقد كل السكان ، لذا تأثرت الزراعة ولم تجد الأرض من يزرعها ، فكانوا يجدون الفلاحين أمواتا خلف محاريثهم ، وبعضهم مات جوبنده البذار (٤٧) . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أصاب الطاعون الطيور كالنعام والغربان والحيوانات كالأبقار والأبل والاعنام وأهلك أعدادا كبيرة منها (٤٨) . وامتد الى الحيوانات البرية ، فوجدت الاسود والحمر الوحشية والذئاب والخنازير والارانب مطعونة في منطقة الاعوار (٤٩) . فالطاعون والوباء ( الحميات ) أثر في ديموغرافية البلاد في العصر المملوكي واستمر وجوده في المنطقة منذ أواسط القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلادي ) حتى أواخر القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) ، وادي الى نقص كبير في عدد السكان . فتوقف النمو السكاني تماما في فترة من الفترات ، فالأطفال الذين يولدون كانوا يموتون بعد يوم أو يومين (٥٠) . وحدث مثل ذلك في أوروبا فقد توقفت الخصوبة والنمو الديموغرافي تماما بسبب طاعون القرن الرابع عشر الميلادي (٥١) . وافنى هذا الطاعون ثلث سكان أوروبا ، وفقدت كل من جنوا وفينيسيا

سيتين ألفا من سكانها (٥٢) ، أما فلورنسا ولندن فقدت كل مدينة منهما مئة ألف نسمة ، وفقدت بيزا سبعة أعشار سكانها . أما سكان قبرص فقد هلكوا جميعا ، وفقدت ألمانيا مليوناً وربعا من سكانها ، وفرنسا ثلاثة أرباع سكانها وإيطاليا نصف السكان (٥٣) . وهذا النقص الهائل في عدد السكان كان تأثيره كبيرا في الثروة الزراعية والاقتصادية والحيوانية ، فانخفضت بل وقلت مواردها ومردودها على البلاد .

وقد تأثر نظام الملكية في الشام جميعها نتيجة للطاعون بسبب هلاك العديد من الملاكين والمزارعين ، فانحلت الأقطاعات بموت أصحابها ، وانتقلت ملكية الأراضي الى ملاكين جديدي (٥٤) . وظهرت طبقة جديدة من العامة كالخياطين والاساكفة ملكت الأقطاعات (٥٥) ، ولم يسمح لها في السابق امتلاك مثل هذه الاملاك - لان الأقطاعات المملوكية كانت في معظمها عسكرية من حق الامراء والاجناد فقط - بل ان معظمهم ملك البيوت والاموال لموت أصحابها ولعدم وجود من يرثها او يطالب فيها (٥٦) . ولقلة الفلاحين العاملين في الارض حدثت الدولة من حرية الفلاحين ومنعت انتقالهم من ارض الى اخرى الا بعد مرور ثلاث سنوات ، وان فعل وترك الارض اعيد اليها بالقوة (٥٧) . ونرى ان الامر حدث في نفس الوقت في انجلترا ، فبعدها أصيبت البلاد بالطاعون قرر البرلمان بقانون العمال عودة الاقنان وعمال الحرف الى أجورهم القديمة وحرم عليهم الانتقال من جهة الى اخرى (٥٨) .

وكان من نتيجة الطاعون كذلك ان تأثرت الثروة النباتية فلم تجد البساتين والكروم من يعتني بها لموت أصحابها ودوابهم ، فخربت وجفت اشجارها ، وادى ذلك الى نقص في الثروة الشجرية والنباتية . ثم ان القحط والجفاف الذي واكب الطاعون والوباء في العصر المملوكي اثر على البيئة في الاردن وفلسطين ، فهلكت الحيوانات وجفت الزروع والاشجار وخربت البلاد لجفاف المياه من الينابيع ونقص منسوبها في الانهار ، أضف الى ذلك ما سببه الجراد الكثيف الذي دهم البلاد في تلك الفترة الحرجة من تاريخها وادى ذلك الى غلاء في الاسعار فهجرت السكان والفلاحون قراهم (٥٩) . اذن حدث تغير في الكثافة السكانية في بلاد الشام ، وهجرة داخلية ، مما ادى الى تغيرات في التجمعات السكانية آنذاك . وهكذا فقد كان للعوامل الطبيعية السابقة من قحط وجفاف ووبئة وطاعون وجراد آثار مباشرة في عدم النمو السكاني . فالنمو السكاني هو الام للتقدم الزراعي الذي هو متطلب طبيعي للتقدم التجاري والصناعي ، والنمو السكاني يحتاج الى البيئة النقية المناسبة ، والى الامن والاستقرار الذي كان مفقودا في فترات لاحقة من العصر المملوكي الثاني . فغزوات التتار بقيادة تيمورلنك ، والتطاحن

الملوكي على السلطة وثورات النواب والماليك ثم حرب الماليك مع العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) ، ثم الاجتياح العثماني للبلاد ومهاجمة العشير للمراكز الحضرية بعد أن انحل جبل الامن والاستقرار ، وضعف السلطة المركزية ، لكل ما سبق خربت القرى وهجرها سكانها ، فلم يأت القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي الا وعدد كبير من القرى خال من السكان ، حتى ان السجلات العثمانية نعت العديد منها بـ ( خراب وخالي ) ( ٦٠ ) .

وكان للطاعون والوباء والقحوط آثار سلبية في المجتمع الشامي بشكل عام ، فانتشر الفساد والفسق والفجور ، وتعاطى الناس الفواحش ، فابن صصرى يقول في سنوات القحط العظيم الذي أصاب الشام : « وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات ما لم نكن نراه ، وسمعنا فيه ما لاسمعناه ، وابصرنا عجائب ، وشاهدنا غرائب ، فهذا الحال قلت الارزاق ، وكسدت بضائع الاسواق ، وقل نزول الغيث ، وتعطلت اسباب الناس ، وقست قلوب الملوك ، وتجبر الغني على الصعلوك ، فهلك الرعية وعظمت البلية » ( ٦١ ) . وبسبب القحط والغلاء ظهرت طبقة طفيلية استغلت حاجة الناس ، فاحتكرت الاصناف وتلاعبت في اقوات المواطنين ، وفرضت الاسعار التي تريدها ، مما دعا العامة الى الثورة على هؤلاء المحتكرين ، فحطمت قصورهم ، واستولت على اهراماتهم وما بها من مغلات وأطعمة ( ٦٢ ) . وعلى تقيض ذلك حدث في فترة انتشار الطاعون والابوة والموت الكثير ، فوجد ان الاسعار انحطت ، وبيعت السلع بأبخس الاسعار لعدم وجود من يشتريها ، وانحطت قيمة الذهب والفضة .

ومن الآثار السلبية للطاعون على المجتمع الشامي بشكل عام . قلة الصناع والعمال ، وارتفاع الاجور ، مما اضطر الدولة الى استخدام القوة لمنع مثل ذلك وارغام العمال على القبول بأجور معقولة ( ٦٣ ) . وحدث نفس الشيء في الدول الاوربية اثناء الطاعون الكبير ، لكن دولها تغلبت على هذه المعضلة وما قد يترتب عليها من نتائج ثورية قد تؤدي الى تغييرات هامة في مجتمعاتها ، فسنوا القوانين التي حرمت على سائر عمال الحرف تقاضي الاجور الباهظة ( ٦٤ ) .

كما ان التجارة تأثرت لعدم وجود السلع ومن يحملها أو ينقلها ، وانعكس ذلك على البلاد ، لا بل على الدولة عامة ، فقلت مواردها المالية مما دفع السلطان للاستدانة من تجار الكارم لتجريد الحملات لمحاربة الثائرين على الدولة ( ٦٥ ) .

ومن النتائج أيضا ظهور حركات التمرد والعصيان بعد أن انحل جبل الامن في الدولة المملوكية بشكل عام لموت أكثر جيشها في الطاعون والوباء ، وخصوصا في

دولة المماليك الثانية (٦٦) . ولقلة مواردها الاقتصادية والمالية لم تتمكن من شراء ممالك جدد تزود بهم قواتها العسكرية ، مما دفع بعض الامراء للثورة على السلطة المركزية ومحاولة الاستقلال في نياباتهم وخصوصا في بلاد الشام (٦٧) . ومما لا شك فيه ان ذلك كان سببا من اسباب ضعف الدولة المملوكية وعدم استطاعتها الصمود والوقوف امام العثمانيين في اوائل القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) .

ونتج عن ذلك ايضا تغييرات اجتماعية خطيرة ، فظهرت طبقة جديدة امتلكت الاراضي والاموال وكانت في السابق محرومة من هذا الامتياز ، فنرى اصحاب الحرف العامة يمتلكون الاقطاعات علما ان هذه الاقطاعات كانت حكرا على الامراء والاجناد مقابل تقديمهم خدمات عسكرية للدولة . وكان للكساد الاقتصادي والقحط والمجاعة والموت بأعداد كبيرة مردوده الاجتماعي ، فآثر في السلوك والقيم والاخلاق العامة ، وهجرت قرى عديدة وأصبحت خربة خالية من السكان . وحدثت ردة لدى المواطنين في الشام ، فأصابهم اليأس فعمدوا الى الفسق والفجور والملاذات هروبا من واقعهم المرير ونهايتهم السريعة . بينما عمد آخرون للجوء الى الله بسبب الضائقة التي كانوا يعانون منها ، فهرعوا الى المساجد ودور العبادة يطلبون الرحمة من الله ، وحدث نفس الشيء في أوروبا . وقد شاهد ابن بطوطة لوحة معبرة عن التوبة والرجوع الى الخالق اثناء مروره بدمشق سنة ٧٤٩ هـ ( ١٣٤٨ م ) فقال : ان الدمشقيين « باتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح ، وخرجوا جميعا على اقدامهم ، وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة . وخرج جميع اهل البلد ذكورا واناثا ، صغارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم ، والنصارى بأنجيلهم ، ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وانبيائه (٦٨) ، أن يزيل عنهم هذا الوباء ويحميهم منه ، وكذا فعل الناس في الكرك والقدس ونذروا النذور لهذه الغاية » (٦٩) .

وتسبب الطاعون في موت أعداد كبيرة من علماء وفقهاء البلاد ، فابن بطوطة مر بالقدس اثناء انتشار الطاعون في الاردن وفلسطين سنة ٧٤٩ هـ ( ١٣٤٨ م ) فقال : « وجدت من كنت أعهده من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى ، فلم يبق منهم الا القليل » (٧٠) . وحدث مثل ذلك في غزة التي فقدت ثلاثة ارباع علمائها وفقهائها وشهودها العدول (٧١) ، وانسحب ذلك على بقية البلاد الشامية والمصرية ، ولاشك ان موت العديد من علماء وفقهاء البلاد كان له تأثيره على الحياة العلمية وتطورها .



## خاتمة :

وفي نهاية هذه الدراسة نشير الى ما يلي :

١ - أصيبت المنطقة بالطاعون منذ عام ٦٣٩ م وهو ما عرف بطاعون عمواسي وصاحبه جفاف وقحط ومجاعة . ثم طاعون القرن الثامن الميلادي في عهد هارون الرشيد ومن نتائجه انحلال الملكيات وعدم وجود من يمتلك الارض ويستغلها .

٢ - ثم عاد الطاعون والوباء للمنطقة والذي سمي بالطاعون الاعظم أو الموت الاسود منذ سنة ١٣٤٧ م ، وعم كل مدينة وقرية ، وكان هذا عاما في العالم ، ولكنه بقي في منطقتنا مدة اكبر اذ استمر من اواسط القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر اي ( ١٥٠ سنة ) .

٣ - صاحب الطاعون في مرات عديدة جفاف وقحط ومجاعات وفي احيان كثيرة انتشر الجراد الذي فتك بالثروة والغطاء النباتي في البلاد .

٤ - لم تكن الدولة سلبية ازاء ذلك ، فمنذ العصر الايوبي انتشرت البيمارستانات ( المستشفيات ) في جميع انحاء بلاد الشام وذكرت المصادر ان سبب ذلك هو الاوبئة التي فتكت بالناس ، فوصل عدد المستشفيات الى ( ٣٠ ) مستشفى ، معظمها كان يدرس الطب ، لذا فقد كثر الاطباء ولدينا كتب تراجم لمئات منهم ، بل وجد في معظم القلاع اطباء للمحافظة على سلامة الجنود والسكان المجاورين .

٥ - اذا كان الطاعون الذي اصاب اوروبا ادى الى تغييرات اجتماعية كبيرة بل كان مقدمة للثورة الصناعية وانحلال نظام الاقطاع فما هي التغييرات التي أصابت المنطقة عامة وهل كانت بنفس الدرجة التي حدثت في اوروبا؟؟.

٦ - الانقلابات او التغييرات التي حدثت في المجتمعات الاوروبية لم تكن مفاجئة بل انها ادت الى تغييرات أساسية بطيئة نستطيع ان ندرجها في مجملها في قائمة الانقلابات ، فهل حدث ذلك في منطقتنا؟؟.

٧ - البحوث الاوروبية رتبت على طاعون القرن الرابع عشر ، معظم الحركات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فهل نستطيع ان نرتب على الطاعون في بلاد الشام تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية؟؟.

٨ - المصادر التي لدينا تذكر ان قرى منطقة الكرك في نهاية الدولة المملوكية كانت ٤٠٠ قرية وفي منطقة البلقاء حول عمان ٣٠٠ قرية وفي شمال الاردن وحوارن ١٢٠٠ قرية ما عدا منطقة الاغوار وان معظم المدن كانت عامرة مزدهرة بالسكان كالكرك والشوبك وعمان والعقبة وعجلون واربد وجبراص والسلط وغيرها .

٩ - هناك تساؤل كبير لماذا هذه الخرائب المنتشرة في جنوب البلاد وشمالها والتي تبلغ المئات ولماذا خربت وأين سكانها؟؟ ثم لماذا أصبحت البتراء والشوبك وعمان ومادبا وجرش وعجلون وجبراص وبيت رأس وجدرا وفحل وقويلبه وام الجمال خرائب قليلة السكان ، فعند وصول الرحالة الاوربيين الى المنطقة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ذكروا بل وصفوا قلة السكان في كل هذه المراكز الحضارية القديمة .

١٠ - اذن لابد من وجود سبب لكل هذا التغير في الديموغرافية السكانية ليس سببه الانسان وحده بل لابد من وجود عوامل طبيعية قاهرة كانت فوق قدرة الانسان فلم يتمكن من السيطرة عليها وادت الى تدمير وخراب كل هذه المدن والقرى ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ان كل هذه المدن والقرى كانت عامرة في العصر الايوبي والمملوكي .

١١ - وهنا اطرح سؤالا الى الباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة ، هل تعتقدون ان هناك دورة مناخية ؟ فقد ذكر البعض ان الاردن مثلا كانت في فترة ما اكثر رطوبة واكثر امطارا وغطاؤها النباتي كان كثيفا .

١٢ - واخيرا اتوجه الى الباحثين بأن يأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار ، وان يبحثوا جديا في اسباب هذه التغيرات في منطقتنا وهذا الاضمحلال السكاني الذي ادى الى خراب البلاد وذلك من خلال تحليل العظام التي تعود لهذه الفترة واعطائنا سببا علميا لهذا الوباء الذي لم يتمكن الانسان من السيطرة عليه ، وكذلك سببا علميا لهذه الجذوب والقحوط والمجاعات التي فتكت في المنطقة في العصر الوسيط . وباعتقادي ان في هذا جواب قاطع لكل الادعاءات التي تملل سبب هذا الاضمحلال بالحكم العربي الاسلامي في المنطقة ، فنحن في العصور الوسطى بلغنا أوج التقدم الحضاري والعلمي والمصادر التاريخية تثبت ذلك .

## الحواشي :

- (١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- (٢) أبو المحاسن ، نفس المصدر ، ص ١٩٨ .
- Nohl, The Black death, London, 1924, P. 18.
- (٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ م ، ج ٤ ، ص ٦٣ .
- عمواس : بلدة في فلسطين قرب القدس وعلى بعد ستة أميال من الرملة ، بدأ طاعون عمواس منها زمن الخليفة عمر بن الخطاب . ( لي سترايج ، ص ٤٢٦ ) . وقد دمرتها إسرائيل حالياً وأجلت سكانها عنها وجعلت منها منتزهاً عاماً . ( الباحث ) .
- (٤) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٣ .
- (٥) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٩٦ .
- (٦) يقول الطبري : « أصابت الناس سنة بالبلدنة وما حولها ، فكانت تسفي اذا ريحت تراباً كالرماد فسمي ذلك العام عام الرمادة » . ( ج ٤ ، ص ٩٨ ) .
- (٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٣ .
- (٨) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
- (٩) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، تحقيق علي المنتصر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ١ ، ص ١١٤ .
- (١٠) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٧ .
- أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- Nohl, op. cit. P. 18.
- (١١) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ .
- أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- Nohl, op. cit. P. 18.
- (١٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٧ .
- (١٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ، ص ٧٤٩ .
- (١٤) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ .
- أبو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- (١٥) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عيوان درويش ، دمشق ١٩٧٧ م ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

- (١٧) ابن قاضي شعبة ، نفس المصدر ، ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢ ، ١٢٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ .
- (١٨) ابن قاضي شعبة ، المصدر نفسه ، ص ٥١٢ ، ٥٧٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ .
- المقرئزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٦٣٩ .
- (١٩) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والإبدان ، ج ٢ ص ٣٦٩ .
- (٢٠) المقرئزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ، ص ٨٣٦ .
- أبو المعاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٤٨ .
- (٢١) المقرئزي السلوك ، ج ٤ ق ٢ ، ص ٨٢٤ .
- يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ص ١١٨ .
- (٢٢) المقرئزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٢٩ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٤ .
- (٢٣) الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٣١٨ ، ٣٦١ .
- يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص ١١٩ .
- (٢٤) ابن صغرى ، الدررة المضيئة في الدولة الظاهرية تحقيق وليم برنز ، كاليفورنيا ، ص ١٦٤ .
- (٢٥) ابن صغرى المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
- ابن قاضي شعبة ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٦٤٨ .
- (٢٦) ابن صغرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ .
- (٢٧) ابن صغرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٢٨) ابن صغرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .
- (٢٩) ابن صغرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .
- (٣٠) المقرئزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٦٠٩ .
- (٣١) المقرئزي ، المصدر نفسه ، ص ٧١١ .
- (٣٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ص ٤٥٧ .
- (٣٣) Smith, The historical geography of the Holy Land, p. 535.
- (٢٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٦ .
- أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ .
- (٢٥) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، القسم الخاص ببلاد الشام ، ص ٥ .
- (٣٦) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ . أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ، القرمانلي ، اخبار الدول واثار الاول ، ص ٢٥٩ .

- (٣٧) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ١٩٧٧ ، ج ٣ ص ١٥٧ .
- (٣٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٩ ، المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٩٢ ، الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ٣ ، ٤ .
- (٣٩) الإدريسي ، ص ٤ .
- (٤٠) المقدسي ، ص ١٧٩ . Fulcher of Chartres, P. 146.
- (٤١) ابن حصرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
- (٤٢) الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ٩ ،  
الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ص ٥٩ .
- (٤٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٣٥ ، الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١١ ، ابن بطوطة ، ج ١ ص ٢٥ .
- يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص ٨٠ ، لي سترانج ، ص ٩٧ - ٩٩ ، ٢٥٧ ، ٢٨٦  
Benvenisti, The Crusades in the Holy Land, P. 217.
- (٤٤) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
- (٤٥) يوسف غوانمة ، الرجوع السابق ، ص ١١٩ .
- (٤٦) ابن بطوطة ، ج ٢ ، ص ٧٥٠ .
- (٤٧) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٩٨ .
- (٤٨) Nohl, op. cit. p. 18.
- (٤٩) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٨٤ ، ابو المحاسن ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، وانظر ابن اياس ، ط الشعب ، ص ١٦٤ .
- (٥٠) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ . Nohl, op. cit. p. 40
- Lopez, The Commercial revolution in the middle ages, p. 29.
- Kedar, Merchants in Crisis, p. 165.
- Kedar, op. cit, p. 5, 19. (٥٢)
- Nohl, op. cit. p. 38, 40. (٥٣)
- (٥٤) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٢ ص ٣٣٠ .
- (٥٥) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
- (٥٦) ابو المحاسن ، نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٢٠٨ .

(٥٧) السبكي ، معبد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٤ ، فهو يقول : « وقد جرت العادة بان من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ويماد الى القرية فهدا ويلزم بشد الفلاحة » .

(٥٨) محمد مصطفى زيادة ، دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي ، بحث في التاريخ والاثر ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ١٦١ .

(٥٩) ابن صبرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ٢٠٢ .

المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٩ ، ٧١١ .

Utteroth & Abdal Fatah, Historical Geography of Palestine. p. 26.

(٦٠)

(٦١) ابن صبرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٦٢) ابن صبرى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٦٣) ابو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢١٠ .

(٦٤) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٦٥) ابو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٧١ .

الكارم والكارمية ، هم التجار الذين كانوا يتاجرون بسلع الهند والصين ووجنوا في مدن دمشق والقاهرة والاسكندرية .

(٦٦) ابو الحسن ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٤٠ .

Kedar, op. cit. p. 14.

(٦٧)

(٦٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ص ١١٤ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٧٥٠ .

(٧٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ص ٧٥٠ .

(٧١) المصدر نفسه .

